إبراهيم

لئن صحَّ مازعموا : أن النمروذ ملك بابل ، كان رأى رؤيا أزعجته من نومه ، إذ رأى : طفلاً يحبو على حجره ، ويمد يده ، ويخطف التاج من فوق رأسه ، فهبَّ يسأل العرّافين تعبيرَ هذه الرؤيا ، وأفهموه أنه سيولد ولد ، في أيامك هذه ، وسيكبر ، وسيكبر شأنه ، وسيكون زوالُ مُلكك على يديه .

ولئن صحَّ مازعموا : أنه أمر أن يُذبح كلُّ طفل يولد ، حتى لا يسمح بالحياة لهذا الصبى الذى خطف تاجه فى منامه .

وأن أم إبراهيم ، وهى حبلى فيه ، خافت على وليدها أن يُذبح ، فهربت به إلى جُحْر فى جبل خارج المدينة ، وولدت ولدها إبراهيم فيه ، وعاش الطفل فى هذا الغار المظلم المسدود مدة صباه .

وأن أُمه كانت تذهب إليه ، متخفِّية تحت ستار الليل ، لترضعه ، أو تسقيه أو تطعمه ، ثم تسدُّ عليه بحجر كبير ، حتى لا يدخل عليه وحش أو تلدغه حشرة أو حية ، ثم تعود إلى المدينة ، وكأنها كانت فى زيارة ، حتى لا تنبِّه إليها الأعين ، أو يعرف الناس سرها ، فيذبح الملك وليدها .

وامتدت به الإقامة ، حتى أتم الرضاعة ، ففطمتْه ، ثم حَبا ثم وقف على قدميه ودبّا ، ثم كبر وفَطِنَ وَوَعَى ، وفكَّر فى الغار ، وفيما وراءَ الغار .

ولئن صحَّ أنه لما جَنَّ عليه الليل ، وحَلَكَ ظلامُه ، أطلَّ من باب الغار ، فرأى كوكبًا يلمع فى السماءِ ، وقد بهره فى عُلوِّه وسُموِّه ، وسُطوع نوره ، فحسبه ربًّا يُعْبد ، فقضى الليل ، يسجد له ويعبده ، حتى إذا غاب عن عينه ، بحث عنه ، فلما لم يجده ، فكر فى غيابه ، وفكر فى ربّ يغيب عن عبده ، وأن الرب إذا غاب لا يستحق أن يعبد . فلما أفل ، قال :

﴿ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَءَا كَوْكَبًا قَالَ هَٰذَا رَبِّى فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلْآفِلِينَ ﴾
(الأنعام الآية ٧٦)

ونظر ، فرأى القمر بازغًا ، ساطع الضوءِ ، كامل النور ، بهى الطلعة ، ورآه أكبر من النجوم وأسطع من الكواكب ، وأشمل فى النور ، وأجمل فى إضاءَة الكون ، فقضى هزيع

الليل يسجد له ويعبده ، ولكنه أفل وغاب عن عينه ، فخاب ظنه فيه ، واستكثر على نفسه أن يكون عبدًا لربّ ، يأفل ويغيب ، وقال : أين ربى يهدينى

﴿ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ ﴾

(الأنعام الآية ٧٧)

فلما استبدت به حَيْرته ، جَرُؤ أن يزيح باب الغار ، وأن يظهر بالنهار ، وأن يرى الشمس ساطعة وهّاجة ، فيها ضوء وحرارة وحياة .

﴿ قَالَ هَٰذَا رَبِّي هَٰذَا أَكْبَرُ ﴾

(الأنعام الآية ٧٨)

وعَبَدَها بإخلاصٍ واندفاع . وقضى اليوم فى ظاهر الغار . فلما أفلت ، فقد الأمل فى هذه الآلهة التى تظهر وتغيب ، والتى لاتدوم على ظهورها لعبادها فى كل زمان .

* * *

وقلب نظره ، وأجهد فكره ، وحكم عقله ، فى هذه الالهة ، فلم يجد إلهًا منها ، يملأ نفسه قدسيَّة ، ولا يفعم صدره جلالاً ، ولا يُشبع رُوحه إيمانًا بأنه ربٌّ معبود ، وإنه إله فردٌ صمد .

* * *

لئن صحَّ مازعموا من حكاية الغار ، لكان إبراهيم ، بفطرته السليمة ، وفطنته الخارقة ، وذكائه الثاقب ، وحُسن تفَهُّمه لما يقع تحت بصره ، وتفسيره لمظاهر الكون الذى بدأ يعيش فيه ، لكان إبراهيم بهذا ، أول من اهتدى إلى ربه بفكره ، قبل أن يُنعم الله عليه بوحيه ، ولكان أول من آمن عن دراسة وتجربة ، وأسلم بعد مناقشة نفسه فى خَلْقِ الله ، حتى اهتدى إلى العقيدة الحقة ، وإلى توحيد الله ، وإلى نَبْذِ الشرك والكفر ، ودين آبائه الأقدمين .

ولكان إسلام إبراهيم ، واهتداؤه إلى دين الله ، حجةً للذين يقولون : إن الإنسان يُكَلَّفُ بالاهتداءِ إلى الله ، لمجرد أنه عاقل ، وأن أهل الفترة ، بين دين ودين ، مُكلَّفُون مسئولون ، لأنهم عاقلون ، وأن ضريبة العقول أن تكون هاديةً إلى الله ، فإن لم تَهْدِ صاحبَها ، وتصل به إلى ربها ، كانت كالمال ، حين لا تؤدَّى عنه الزكاة .

* * *

وإن كان إبراهيم ، قد اهتدى إلى ربه ، إلا أن العقيدة ، تحتاج إلى تطبيق ، والتطبيق تثبيتٌ وترسيخ .

* * *

فاتجه إلى ربه يسأله :

﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ أَرِنِى كَيْفَ تُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ ﴾ (البقرة الآية ٢٦٠)

وكيف تبعث الخلائق يوم القيامة ؟ بعد أن يفنوا جميعًا ؟ وتأكلهم الأرض ويصيروا ترابا ؟ .

قال له ربه

﴿ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن ﴾ (البقرة الآية ٢٦٠)

بعد أن اهتديت إلىَّ بعقلك ؟ وأنعمتُ عليك ، بما أوْحَيْتُ إليكَ ؟ .

قال إبراهيم : « بلى » آمنت وصدَّقت ، وأسلمت وجهى لك ؟ ولكن ليطمئن قلبى إلى صدق ما اهتديتُ بعقلى إليه .

وليكون القلب والعاطفة والوجدان والروح سندًا وتقويةً للعقل ، ولأكون مُتجها إليك ياربى بعقلى وتفكيرى وقلبى ووجدانى وروحى . ولا تكون فىَّ ناحيةٌ من نواحى وعيى إلا متعلقةً بك متجهةً إليك .

قال ربنا لإبراهيم : فخذ أربعةً من الطير ، فاذبحْها ، وقطعها ، قطعًا ، إربًا إربًا . واخلط قِطَعها ، ثم خذ من الخليط جزءًا . وَضَعْه على قمة جبل ، وخذ من الخليط جزءا آخر ، وضعْه على قمة جبل آخر ، ثم قف بين الجبلين ، وناد هذه الطيور ، تجدْها تأتى إليك ساعية .

أرأيت القدرة يا إبراهيم ، التى تَفْرز القطع المخلوطة ، وهذه الدماءَ الممزوجة ، وهذه الأنفس التى أزهقت ، واختلط أبيضها بأحمرها ، وصغيرها بكبيرها ؟ أرأيت أننا بقدرتنا يا إبراهيم نُعيد خَلْقها ، كما خلقناها أول مرة

﴿ كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ ﴾ (الأنبياء الآية ١٠٤)

أرأيت كيف تعود إليك ، كأن لم يكن شىء ، ولم يكن ذبحٌ ولا تمزيقٌ ولا تفريق ؟ .

أرأيت هذه القدرة يا إبراهيم ؟ وبقدرتنا سنُعيدُ الخلق ، كما خلقناهم أول مرة

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ﴾ (الروم الآية ٢٧)

واطمأن قلب إبراهيم إلى ربه ، وإلى قدرته ، ورسخ فى ذهنه أن الخلق لابد يوم القيامة عائدون ، وعلى إيمانهم وكفرهم محاسبون .

* * *

واتجه إبراهيم بدعوته ، أول ما اتجه ، إلى أقرب الناس إليه ، وأعزهم عليه ، إلى أبيه آزر

﴿ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا ﴿٤٢﴾ يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا ﴿٤٣﴾ يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ عَصِيًّا ﴿٤٤﴾ يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِنَ الرَّحْمَٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا ﴾

(مريم الآيات ٤٢/٤٥)

هذا أدبُ الأبناء ، في عرض الفكرة على الآباء في لطف ولين .

قال له أبوه، وهو مَغِيظٌ مُحْنَق، يتهكم بولده، ويستكثر عليه أن يكون الولد مُرشدًا لأبيه

﴿ قَالَ أَرَاغِبٌ أَنْتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمُ لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا ﴾

(مريم الآية ٤٦)

فلم ييأس إبراهيم من هذا القول الغليظ ، والتهديد والطَّرْد ، ولم ينسَ أنه يتحدث مع أبيه فقال له :

﴿ قَالَ سَلَامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا ﴿٤٧﴾ وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُو رَبِّي عَسَىٰ أَلَّا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيًّا ﴾

(مريم الآيتان ٤٧/٤٨)

ولما تعصَّب أبوه وقومُه عليه ، وهزءُوا به ، وسخروا منه ، وقالوا له :

﴿ قَالُوا أَجِئْتَنَا بِالْحَقِّ أَمْ أَنْتَ مِنَ اللَّاعِبِينَ ﴾

(الأنبياء الآية ٥٥)

يئس منهم ، وقطع الأمل في هدايتهم ، وصحَّح موقفه من وعده أن يستغفر الله لأبيه :

﴿ وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ ﴾

(التوبة الآية ١١٤)

ثم قال : ياقوم إنى برىء مما تشركون

﴿ قَالَ أَفَرَءَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٧٥﴾ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمُ ٱلْأَقْدَمُونَ ﴿٧٦﴾ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّىٓ إِلَّا رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٧﴾ ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ ﴿٧٨﴾ وَٱلَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ ﴿٧٩﴾ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾ وَٱلَّذِى يُمِيتُنِى ثُمَّ يُحْيِينِ ﴿٨١﴾ وَٱلَّذِىٓ أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِى خَطِيٓـَٔتِى يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴾

(الشعراء الآيات ٧٥/٨٢)

﴿ قَالَ بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلَّذِى فَطَرَهُنَّ وَأَنَا۠ عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴾

(الأنبياء الآية ٥٦)

* * *

وأسرَّ إبراهيم فى نفسه ، أن يكون فى دعوته ، جريئًا عليهم مُهاجمًا لعقيدتهم ، مهما كلَّفه الأمر ، فقال :

﴿ وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَٰمَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا۟ مُدْبِرِينَ ﴾

(الأنبياء الآية ٥٧)

* * *

وغافل القوم ، وتربَّص بهم ، حتى خرجوا جميعًا فى يوم عيدهم ، وبقى وحده يفكر فى شأن القوم ، وهم أهله ، ولكنهم كافرون مشركون وأنه اهتدى إلى الله ، وأنهم لقوله ورسالته لا يسمعون ، وأنهم بهذه الأصنام متمسكون متشبِّثون ، وأن الزمن سيطول فى مجادلتهم وهم يجادلون .

والفكرة والعقيدة ، حين تستبد بصاحبها ، تدفعه إلى العمل فتدفع القائد حتى لا يرهب الموت ، ورجل المطافئ حتى لا يرهب اللهب ، ومنقذ الغريق حتى لا يخشى الغرق ، وطالب المعالى حتى لا يغمض الجفن ، وطالب الثأر ، فلا يهدأ حتى يكْرَعَ دَمَ الغريم .

ودفعتْ إبراهيمَ إلى أن يدخل المعبد ، ويرى الطعام ، المقدم قُربانًا للآلهة والأصنام ، فيحتقرها ويُزْدَرِيها ، ويقول لها متهكمًا .

﴿ فَرَاغَ إِلَىٰٓ ءَالِهَتِهِمْ فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٩١﴾ مَا لَكُمْ لَا تَنطِقُونَ ﴾

(الصافات الآيتان ٩١/٩٢)

ويثور فيها ، وينزل عليها ضربًا بيمينه ، وركلاً ورفسًا برجله ثم تأخذه ثَوْرَةُ الغضب فيُمسك بالفأس ، فيحطمها تحطيمًا ، وَيُفَتِّتها تفتيتًا ، حتى يجعلها كِسرًا وجُذَاذًا .

* * *

يالله ، مدينةٌ خلَتْ من أهلها ، وليس فيها إلا شابٌّ واحد ، هائج ثائر غاضب لوجه الله ، ولدين الله ، وهو وحده يُشهر حربًا على الآلهة الزائفة ، مؤيدًا بروح الله الحق ، يضرب ويخبط ويكسِّر ويحطِّم . ويُرغى ويُزبد ، ثم لا يفكر فى نتيجة ما يفعل ، ولا في غَضب القوم عليه ، ولا فى ثورتهم ضده ، ولا فى أى عقاب سينزلونه به .

فَعَلَ ما فَعَل ، وعَلّق الفأسَ على الصَّنم الأكبر ، وخرج وهو يصيح ويجأر الله أكبر الله أكبر ! .

* * *

ورجع القوم إلى مدينتهم ، وزاغت أبصارُهم من هوْل ما رأوْه قد حلّ بآلهتهم ، وفُجِعُوا فى دينهم وعقيدتهم ، وفى معبدهم . والعقيدة مظهرُ الروح والعاطفة ؛ يثورون لها بوجدانهم ، ولا يحكِّمون عقولهم ، ويهيمُون لها بقلوبهم ولا يرجعون إلى تفكيرهم ، ويندفعون تحت تأثير تقاليدهم ، ولا يكبَحُون جماحَ ثورتهم . ويقولون مَنْ هذا الذى جُنَّ جُنُونُه ، حتى فعل هذا بآلهتنا

﴿ قَالُوا مَن فَعَلَ هَٰذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ ﴾

(الأنبياء الآية ٥٩)

ويقول بعضهم لبعض ، مُتجاهلاً قدر هذا النَّبى الهادى العظيم :

﴿ قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ ۝٦٠ قَالُوا فَأْتُوا بِهِ عَلَىٰ أَعْيُنِ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ ﴾

(الأنبياء الآيتان ٦٠/٦١)

واجتمع الناقمون ، والْتَمَّ الناس ، وتألّبتْ عليه المدينة ، وانعقدتْ الجموع للمحاكمة . وسأله زعماءُ القوم

﴿ قَالُوا أَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ ﴾ (الأنبياء الآية ٦٢)

ذلك موقفٌ صعب ، لا يتحمله ولا يقوى على مجابهته ، إلا ذو العزم قويُّ الجَلَد : إبراهيم ، فهو أبو أصحاب العزم من الرسل . حين يرى هؤلاء الغاضبين ، وهم خصومه وحكّامه ، وحين يرى المحكمة والمحكّمين ، يرمونه بشرر الغضب ، ويتوعّدونه بالشر ، وهو هادئٌ ثابت ، معتمدٌ على عقيدته مستندٌ إلى رعاية ربه ، لا يخاف ولا يَرْهَب ، ولا يحني رأسه ، ولا يتّقي ولا يخاف إلا الله .

﴿ قَالَ بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا فَسْـَٔلُوهُمْ إِن كَانُوا۟ يَنطِقُونَ ﴾

(الأنبياء الآية ٦٣)

فأى تهكم بالصنم الأكبر وأى ازدراءٍ لعقيدتهم وأىُّ استخفاف بأحلامهم ؟ .

بل إن إبراهيم ، كان يرجو أن يعمل عملاً ، أىَّ عمل يُسبِّبُ اجتماع القوم على هذه الصورة ، حتى يقول لهم قولَته ، ويُعلن رسالته ، ويُبيِّن حجته ، ويُثبت فكرته ، وليُريهم قيمةَ ما يحسبُونهم آلهة ، وليوضح لهم أن هذه الآلهة أعجز من أن تحميَ نفسها ، أو تدفع التحطيم عنها فأوْلى وأجدر ألا تنفع أو تضر عُبّادها . وأجدر بها ألا تكون آلهة تُعبَد ، ولا تساوى إلا أنها أصنامٌ من حجارة تكسَّر وتحطم ..

وأوشك أن يقتنع بعض القوم بفكرته ، وأن يؤمنوا برسالته ..

﴿ فَرَجَعُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ فَقَالُوٓا۟ إِنَّكُمْ أَنتُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾ (الأنبياء الآية ٦٤)

ولكن إبليس ، رقص رقصته ، وأشعل فِتنته ، فنكّسهم عن الحق

﴿ ثُمَّ نُكِسُوا۟ عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ ﴾ (الأنبياء الآية ٦٥)

وعادوا يجادلون ويقولون : لقد علمت أنَّ هؤلاء الأصنام لا ينطقون ..

﴿ قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْـًٔا وَلَا يَضُرُّكُمْ ﴾ (الأنبياء الآية ٦٦)

﴿ أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ (الأنبياء الآية ٦٧)

﴿ قَالُوا۟ حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓا۟ ءَالِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ﴾ (الأنبياء الآية ٦٨)

﴿ وَأَرَادُوا۟ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَخْسَرِينَ ﴾ (الأنبياء الآية ٧٠)

* * *

وغضب القوم غضبًا شديدًا ، وتجمعُوا عليه ، ليَفْتِكوا به ، وليمزِّقوه ، شرَّ مُمَزَّق . ولكنهم رأوا أن الفتك والتمزيق فى ساعة أو بعض ساعة لا يشفى غليلَهم ، ولا يُبرِد نارَهم . وقرروا : إنه لاَ يشفى غليلنا ، ويطفئ نارنا ، إلا إذا عذَّبناه عذابًا بطيئًا ، ونكَّلْنا به نكالاً شنيعًا ، وأنه لا يكفينا حرقه ، وإنما نُحرِّقه تحريقا ، فى نار تتلظى وتتوهج ، وأن يوقدها عليه كل غضبان ويؤجج لهبها كلُّ مَوْتور ، ليعلو أُوَارُها ، حتى يَشوِى الطير فى جوِّ السماءِ ، وحتى يسمع بها التاريخ ويهمس بها فى آذان الأجيال ، تِلْوَ الأجيال ..

ولابد أن يشهد الخلق كلهم ، مَصرع ذلك الفتى المتمرد على الآلهة ، الجاحد للأرباب ، المسفِّه للأحلام ، المحطم للأصنام ، المُبتدع لدين جديد ، يحاول أن يطمس به دينَ الآباءِ والأجداد ..

هيا يا قوم ، أشعلوها ، واقذفوا به فيها فلقد كان يُهددنا بعذاب النار إن كفرنا ولم نؤمن بربه ، وهاهو ذا قد كفر ولم يؤمن بآلهتنا ، فله عذاب النار ، فأين إلهُهُ من آلهتنا ؟ ..

﴿ قَالُوا ابْنُوا لَهُ بُنْيَانًا فَأَلْقُوهُ فِي الْجَحِيمِ ﴾

(الصافات الآية ٩٧)

وكتَّفوه ، ووضعوه فى المنجنيق ، فى المقذاف الذى سيطوِّح به ، فلما صار بين الكفة والنار ، ضجت الملائكة وأتاه جبريل ، يسأله : ألك حاجة يا إبراهيم ؟ فرد عليه يقول : أما إن كنتُ أحتاج إليك ، فلست محتاجا . فقال له جبريل : إذن فاسأل ربك ، فقال : علمه بحالى ، يغنى عن سؤالى ..

* * *

أرأيت العين ، يذهب بصرها ، فتعمَى ولا ترى ؟ أرأيت الجسم تُسْلبُ روحُه ، فيصير جثةً هامدة ، لا حركة فيه ولا حياة ؟ وأرأيت السكين تفقِدُ قوة الذَّبح ، فلا تقطع فى اللحم ؟ ..

كذلك النار التى أجَّجوها ، فزمْجَرت بصوتها ، وزغردت بألسنتها ، قد سلبها الله حرارتها وحرَّها ، فكانت بردًا وسلامًا على إبراهيم ..

ويا ترى ؟ لمن تكون العناية الربانية ، والعناية الرحمانية ، إذا لم تكن لخليل الله إبراهيم ، فى ساعة كُرْبته ، واحتدام شدته !! ..

إن قوة العزم ، ورسوخ العقيدة ، وصلابة الروح ، واتصال العبد بربه ، وسموّ نفسه ، تنسى الإنسان حِسَّه وَجَسَده ..

* * *

وهدأت النار وخمدت ، وإبراهيم سليم معافى ، لم يمسسه سوءٌ . هائمٌ فى ساحة الله ، مُتَحَصِّنٌ برعاية الله ، هادئ النفس ، ثابت العقيدة ، كأنه قضى تلك الساعة فى جنة فسيحة ، يسرح بين ماءٍ وخضرة ونسيم رطيب ..

* * *

والناس ذاهلون ، وفى حَيْرتهم غارقون ، وعلى أنفسهم باللوم والخجل يعودون ، وكادوا يُسَلِّمُون لإبراهيم ويُسلمون ، ورجعوا إلى أنفسهم فقالوا إنكم أنتم الظالمون . ولكنهم نُكِسُوا على رءوسهم ، فعادوا لما هُمْ فيه من الكفر والعناد يغرقون ..

* * *

تلك ثورة الشعب على إبراهيم ، وقد تبلبلت أفكارهم ، وزُلزلت عقيدتهم ، وتحطمت أصنامهم ، وطاش آخر سهم صوَّبوه إلى إبراهيم ، فراحوا فى شك من دينهم ، ولكنهم فى دينهم لا يفرطون ..

* * *

وأين النمروذ ، الملك الجبار ؟ لقد خاف على عرشه ومُلكه من إبراهيم ! الذى غَلَّبَ الشعب وحيَّره ..

لقد استدعى إبراهيم ، وجادله ، ورَسَمَ خطة يهدم بها دعواه ، ويبطل حجته ، ويفسد رسالته ، ويبعث الشك فى عقيدته ..

فسأل إبراهيم :

مَنْ ربك ؟ ..

فأجاب

﴿ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّيَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحْىِۦ وَأُمِيتُ ﴾

(البقرة الآية ٢٥٨)

فقال النمروذ :

وأنا يا إبراهيم أستطيع أن أُحيى وأُميت ..

﴿ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾

(البقرة الآية ٢٥٨)

وماذا يفعل النمروذ فى فتى ، تجمَّع الشعب لإحراقه ، فنجَّاه ربه ؟ ثم جادله الملك ، فأسكته ، وألزمه الحجة ، وبَهَتَه ..

فلا القوة أهلكته ، ولا المجادلة أعْيَته وهدَّته ! ..

فليس إلا ما يفعل الملوك ، من الدس والخديعة ، وضرْب الحصار ، وتضييق الخناق ، حتى يقتله التضييق ..

وكان ما قدَّر النمروذ ، فضاق إبراهيمُ بالعَيش بين هؤلاء الناس ، وكره المُقامَ فى قوم معاندين كائدين ..

* * *

فهاجر ، وسافر من العراق إلى فلسطين ، ودعا الناس هناك ، ولأنَ فى دعوته مرة ، واشتد مرة ، وناقش وجادل ، ولَفتهم إلى النجم والكوكب والقمر والشمس ، وأنها لا تقوى أن تكون آلهة تُعبَد ..

فلما لم يؤمنوا

﴿ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٧٨﴾ إِنِّى وَجَّهْتُ وَجْهِىَ لِلَّذِى فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾

(الأنعام الآيتان ٧٨/٧٩)

* * *

﴿ وَحَآجَّهُۥ قَوْمُهُۥ ۚ قَالَ أَتُحَٰٓجُّوٓنِّى فِى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنِ ۚ وَلَآ أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّى شَيْـًٔا ۗ وَسِعَ رَبِّى كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ۗ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٨٠﴾ وَكَيْفَ أَخَافُ مَآ أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًا ۚ فَأَىُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِٱلْأَمْنِ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾

(الأنعام الآيتان ٨٠/٨٢)

* * *

﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا۟ فَأَخَذْنَٰهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴾

(الأعراف الآية ٩٦)

* * *

ومن أين تنزل البركة ، ومن أين يهب الله رخاءَ العيش ، ووسْعَة الرزق ، لأهل فِلَسطين ، وهم قد كفروا بربهم ، فأقْحط الأرضَ عليهم ، وأجْدَبَها فكزّتْ وبَخِلتْ ، وضاق العيش بالشام ، وانقطع الأمل فى إسلام أهل فلسطين ..

* * *

﴿ وَمَن يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مُرَاغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً ﴾

(النساء الآية ١٠٠)

وكذلك هاجر إبراهيم وزوجته سارة ، وابنُ أخيه لوط وزوجته ، ونزلوا مصر ..

وفى مصر فرعون ، ملكٌ عِملاق ، من الرعاة الهكْسوس ، وقد سمع بهذا الوفد الوافد من فلسطين ، وتسرَّب إلى سمعه حديث الناس عن سارة ، الفلسطينية الجميلة الفاتنة ، فطلبها إليه ، وسأل إبراهيم عنها ، فأخبره أنها أخته ..

* * *

هل كذب إبراهيم فى قوله إنها أخته ؟ ولماذا لم يصرِّحْ بأنها زوجته ؟ الحق أن إبراهيم لم يكذب فى أنها أخته . فقد كان الناس يتزوجون الأخت قبل أن تنزل الشريعة على إبراهيم ..

وقد رأى إبراهيم من فرعون أنه لابد سيأخذها لنفسه ، وأنه ليس فيه طاقة على أن يستخلصها منه ، وأن من الحكمة أن يُسَلمها على أنها الأخت ، وليست على أنها الزوجة ، والأخت يُصَاهَرُ عليها ، والزوجة يعزُّ على النفس اغتصابُها ..

ولعل فيها حكمةً أخرى ، كما قال موسى فى عصاه

﴿ قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّؤُا عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَىٰ ﴾

(طه الآية ١٨)

ومن أجل ذلك ، رأينا إبراهيم مضطرًا إلى قبول هذا الوضع ، مستسلمًا لقضاءِ الله ، ودعا الله ألا يُؤْذِيَهُ ، لا فى الأخت ، ولا فى الزوجة ..

وبات فرعون ليلته ، فى أحلام ورُؤى مزعجة مُفْزِعة ، وأفكارٍ شاردة ، ونفسٍ ضائعة ، وهمّ نازل ، وخوفٍ لا يدرى له سببًا ولا مصدرًا .

إذا مدَّ يدًا شُلَّتْ ، وإذا سعى برجلٍ زلَّتْ ، وإذا همَّ تخاذل وانحطَّ لا يستطيع حرَاكًا .

واستغاث ، ولاغَوْث ، واستنجد بالصبح ، فلا يطلع . وأيقن أن قدرة الله أقوى من بطش فرعون ، وأن هذا الرجل النازل فى ضيافته كريمٌ على الله . وأن إيذاءَه يجلب غضب الله .

فردَّ المرأة كريمةً عزيزة ، ووهب لهما أموالاً وخيرًا ، وأَرْدَفَهُم بخادمةٍ مصرية جميلة ، اسمها هاجر ، وأفسح لهم ليقيموا فى مصر ما يشاءُون .

* * *

ولكن إبراهيم ،النبى ، الرَّحَالة ، لم يُغْرِه رَغَدُ العيش بمصر ، ولم يَنْس أن عليه واجبًا أن يعود إلى الشام ، إلى القوم الظالمين .

* * *

ولعل فى إقامة لوطٍ بمصر ،وزوجته معه ، بعضَ السر فى تعجيل إبراهيم بالارتحال ، عن بلاد ليست بلاده ، زوجة لوط ، التى يقول القرآن فيها :

﴿ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱمْرَأَتَ نُوحٍ وَٱمْرَأَتَ لُوطٍ ۖ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَٰلِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا وَقِيلَ ٱدْخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّٰخِلِينَ ﴾

(التحريم الآية ١٠)

* * *

ولعل سرًّا وراءَ نُصْح إبراهيم لابن أخيه لوط ، حين سافرا من مصر واقترح عليه ألاَّ تُقِيمَ الأسرتان فى بلدٍ واحد فى الشام حفظًا على القرابة ، وحرصًا على دوام الألفة .

وقد عمل لوط بنصيحة عمه إبراهيم ، فنزح إلى حدود الشام ، فى سَدُوم ، وأقام هناك يؤدى رسالته فى قوم لوط .

* * *

وأقام إبراهيم فى الشام مع زوجته سارة ، وخادمته هاجر ، الفتاة المصرية الجميلة ، هدية فرعون ، إلى الرجل الطيب ، المحفوف برعاية لله ، المحروس بحراسة الله .

* * *

وعاش إبراهيم سعيدًا ، فى الخير الذى ساقه معه فرعونُ مصر ، بين زوجته سارَّة ، وقد تقدَّمتْ فى سنها وقد عَقِمَتْ ، فلم تلد ، وبين خادمته هاجر ، وهى فى مَيْعَةِ الصِّبا ، واكتمال الصحة ، واستواءِ الجمال .

وإبراهيم قد جاوز الستين ، وقد تاقت نفسهُ إلى ولد ، وزوجتُه سارَّة تَحُسُّ حنينه إلى ولد ، وإن لم يتحدثْ ، وإن لم يتشوَّق .

* * *

ودفعها حبُّها لإبراهيم أن تقدم له هاجر ، زوجةً جديدة ، فهى خادمةٌ مرافِقةٌ ومُوافقة ، وسوف لا تكون أكثر من خادمةٍ وأمٍّ ولد . ولعل ذلك يسدّ حاجة فى نفس إبراهيم .

* * *

وإبراهيم يتأبَّى على سارَّة ، ويخاف عليها الغَيرة ، ويُعلن رضاه بما هو فيه . وسارَّة تلح عليه ، وتتحمَّس فى عَرْضِ هذه الضرة ، على زوجها إبراهيم .

* * *

ويدخل إبراهيم بهاجر ، فتلد الولد ، والولدُ قوةٌ وسَنَد ، وقطعة كبد . وعديلُ الروح والجسد .

* * *

ولكنه يا إبراهيم من ضَرَّتى هاجر ! وقد ربطك بها ، وأنا بك لم أرتبط ! يا إبراهيم ! نفسى تحركت ، وهمومى تجدّدتْ ، ودموع عينى تحدَّرتْ ، وضلوعى تقوَّضتْ .

يا إبراهيم ! أنا لا أطيق أن أرى هذا الولد ، ولا أم هذا الولد !

فبالله عليك ، وبحق عِشرتى بين يديك ، كنْ بى رحيمًا يا إبراهيم ! ولا تُعَجِّلْ بقتلى ، ولا تُنغِّصْ علىَّ بقيَّةَ عمرى !

بالله عليك ، خذ هذا الولد وأمَّه ، وارم بهما فى وادٍ سحيق لا أسمع عنهما خبرًا فيه .

* * *

وأراد الله أن يستمع إبراهيم إلى سارة ، التى فقأت عينها بيديها ، وقدمت ضرتها عليها ، وضحَّتْ من أجل رضاه ، واستحلفته ألاَّ يُبادلها قسوة بعطف ، ولا جَفوةً بوداد !

فأخذ هاجر ، وولدَها إسماعيل ، وخرج بهما ، يهيم على وجهه فى أرض الله ، لا يدرى إلى أين تسوقُه قدماه !

* * *

وطاف ما طاف ، من الشام إلى العقبة ، إلى مداخل جزيرة العرب ، إلى جَوْف الجزيرة ، بين جبال ووديان ، وصحراءَ ورمال ، حتى أذن الله أن يَحُطَّ فى وادٍ غير ذى زرع ، بين جبلين أصمَّين ، واستودعهما الله فيه ، وقفل راجعًا ، مشتَّت الفكر ، زائغ البصر ، مُوزَّع العاطفة ، بين زوجته سارة الكريمة عليه ، تقيم فى الشام باكية دامعة ، وبين زوجته هاجر أمِّ اسماعيل ، وقد ألقىَ بهما فى الوادى السحيق .

* * *

وتمشى وراءه هاجر ، وتتعلق به ، وتقول : يا إبراهيم : على مَنْ تتركنا ؟ فيلتفت إليها ، وقلبه باك ، وعينه دامعة ، ويقول لها : أتركَكما على ربى . فتطأطئ رأسها ، وتَغُضُّ بصرها ، وتكفكِف دمعها ، وتقول : إذن ، الله لا يُضيِّعُنا . يا إبراهيم ، ارجعْ ، والله يرعاك ويرعانا !

وتعود هاجر إلى طفلها إسماعيل ، وقد اشتدت الشمس ، وصَفَرتْ الأرض وأُوحش المكان ، فلا زرع ولا ضَرْع ، ولا دَيّار ، ولا نافخَ نار .

وعطشتْ ، وعطش الولد ، فقامتْ تدور فى المكان ، تبحث عن ماءٍ ، تُطفئُ به حُرقة العطش ، فلا تجد ، وتتلفت ، فلا ترى إلا الجبال الصَّماءَ ، ترى جبل الصَّفَا . وقد أُوقدته الشمس بوَهَجها ، فلاح عليه سرابٌ ،والسَّراب دخان الأرض المَلْفُوحةُ بالقَيْظ ، يُخَيِّل لمن يراه من بعيد أنه ماءٌ وما هو بماءٍ .

فتجرى هاجر ، وتصعد فى جبل الصفا ، فلا تجد ماءَ .

ثم تنظر إلى بعيد ، فترى جبل المَرْوَة ، وترى عليه ماءً ، وما هو بماءٍ ، وإنما هو السَّراب ، فتجرى إليه ، وتصعد فيه ، فلا تجد ، ثم تلتفت إلى الصَّفا ، فترى فوقه السراب الخادع ، فتجرى إليه فلا تجد ثم إلى المروة فلا تجد .

سبعة أشواط تجريها ، بين جبلىْ الصفا والمروة ، باحثةً عن ماءٍ .لتسقى الطفل إسماعيل ، فلا تجد .

فعادت إليه ، وجلست إلى جانبه ، واستسلمت لأمر الله ، وتضرَّعت إليه والطفل يصرخ ، ويضرب الأرض برجليه .

.والله سبحانه ، لا ينسى صبيَّة جميلةً غريبة ، طوَّحت بها المقادير من أُحضان أُهلها بمصر ، إلى الشام ، إلى ضرَّةٍ عنيفة ، إلى هذا الوادى الشحيح ، الذى وقف على حافته إبراهيم ، يصلى لله ، ويدعوه :

﴿ رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ عِندَ بَيۡتِكَ ٱلۡمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجۡعَلۡ أَفۡـِٔدَةٗ مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهۡوِيٓ إِلَيۡهِمۡ وَٱرۡزُقۡهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَشۡكُرُونَ ﴾

(إبراهيم الآية ٣٧)

* * *

وكانت البشارة ، بشارة استجابة دعاءِ إبراهيم ، إذ نبع الماءُ ، تحت قدمىْ الطفل ، ونبع صافيًا باردًا ، سائغًا للشاربين ..

فسقتْ ولدها ، وروت عطشها ، وخافت على الماء أن يغيض فى جوف الرمال المحرقة ، فأخذت تلُمُّه بيديْها ، وتقول : زِمْ يا ماءُ زِمْ فكانت عين زمزم .

* * *

وحامت الطيور على ماءِ زمزم ، وحلَّقتْ فى جو السماء ، ورأى العرب أن طيرًا تُحوِّم ، ولا تُحوِّم إلا على ماءٍ ، فوردوا ، واستأذنوا صاحبة العين ، فى أن يشربوا من مائها ، فأذنت ، واستضافوها . فضيَّفتهم ، وعاشوا إلى جانبها ، فاستأنست بهم ، وكبر طفلها ، ودرج بين أطفالهم ، وتكلم بلغتهم ، واستعْرَب إسماعيل ، وأصبح منهم .

* * *

وعاود الحنين إبراهيم ، فكان بين الحين والحين ، يعود إلى الوادى ، ليرى ابنه إسماعيل ، ثم يعود إلى سارة العجوز ، التى تتحرَّق شوقًا إلى ولد ، كما وهب الله لضَرَّتها هاجر الولد .

* * *

وإبراهيم شيخٌ فانٍ ، لم يُعَقِّبْ ، وفيه عاطفةٌ عطشى ، تَحِنُّ إلى النَّسْل ، وتأنَسُ بالأولاد .

ومَنْ يُحْرم الولد ، يُحسُّ بالفِقدان ، ويرى نفسه ، كأنه شجر بلا ثمر . وهؤلاءِ يَرَوْن أنهم سلسلةُ حياتهم مُنقطعة الحلقات ، فهم يعيشون فى عطش الحرمان ، وجوع العُقْم .

وإبراهيم كان غنيا ، والغَنِىُّ أشدُّ عطشًا وجوعًا وشوقًا إلى الخَلَف .

ومن أجل هذا خرج إبراهيم من الشام ملهوفًا إلى الوادى السحيق فى الحجاز ، وهى رحلةٌ طويلة ، يَحْدُوه الحنين إلى إسماعيل ، وإلى أم إسماعيل ، ويناجى نفسه فى الطريق ، ويناجى ولده ، تلك إرادةُ الله يا ولدى ، كتب علينا البِعَادَ والبَيْن ، وهبك لى فى شيخوختى ، ليُشْبع شوقى ونَهَمِى ، ثم تكون إرادة الله ، ألا أربِّيك فى حِجْرى ، وأصْنَعَك على عيْنى .

لابد أنك يا إسماعيل قد كبرت ،ودَرَجْت مع الصبيان العرب ، وربَّيتَ بينهم ، ولقَّنوك لغتهم ، وطبعوك على طَبْعهم .

أفما حدَّثوك عن أبيك الذى رماك فى واديهم ، أبيك الذى جفاك ، وفى بيته وأهله ما آواك !

ياليتك يا إسماعيل لا تنسى أباك ، ومتى يا إسماعيل ألْقاك ، وأراك ،إلى جانبى صبيًا يافِعًا ، تُثنِّى وَحْدتى ، وتسمع عنى قصة حياتى ، وتستُر عورتى ، وتردُّ غَيْبتى ،وتخلِّد ذِكْرتى .

* * *

ولقى إسماعيل أباه ، فأكرم مثواه ، ولم تسعهُما الدار ، فخرجا إلى الخلاءِ يمشيان ويسعيان، ثم يعودون آخر النهار ، ثم يُصَبّحان فلا يسعهما إلا الفضاءُ . ولو استطاعا لعاشا فى جو السماء .

* * *

شوقٌ وحنين ، ووصالٌ بعد بُعد بيَنْ ، وسَدٌّ لنقص ٍكان ينكسر له قلب إسماعيل ، حين يرى الآباءَ ولا يرى أباه .

وإشباعٌ لعاطفةٍ كان يُدارى لَهيبَها إبراهيم حين يرى الأطفال ، ولا يرى إسماعيل !

* * *

وفى نشوةِ هذا اللقاءِ ، أرادتْ حكمة الله أن يمتحن إبراهيم أشقَّ امتحان ، لا فى ماله وهو كثير ، ولا فى جسمه وبَدَنِه وهو قوىّ ، وإنما كان الامتحان فى وحيده ، وفلذة كبده إسماعيل .

* * *

أراه الله فى منامه ، أنه يذبح إسماعيل ، ورؤيا الأنبياء تكليف .

وأصبح إبراهيم مهمومًا مغمومًا ، كيف يقوى على ذبحه ، وقد كان مُكْتَوِيًا مُلْتاعًا لبعاده ؟ وكيف يَجَلّد على حز رقبته وإزهاق روحه ؟ وماذا يبقى من عقله وجَلَدِه واحْتماله ، ليدفنه ويُوارى جثَّته ؟

يارِبى تقَّبلْ نفسى فداءً لولدى !

أستغفرك يارِبى ، فهذا قضاؤك ، ولا رادَّ له .

اللهم إنى لا أسألك ردَّ القضاءِ ، ولكن أسألك اللطف فيه !

* * *

واصطحب إبراهيم ، ولده إسماعيل ، وخرجا يسعيان ،

﴿ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعْىَ قَالَ يَٰبُنَىَّ إِنِّىٓ أَرَىٰ فِى ٱلْمَنَامِ أَنِّىٓ أَذْبَحُكَ فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ﴾

(الصافات الآية ١٠٢)

والولد البارُّ بأبيه ، يُكرمه ويُطيعه ولا يُخزيه .

لك الله يا إسماعيل ، ولك الله يا إبراهيم !

فى طاعة الله تنسَى أنه ولدُك ووحيدُك !

كلا والله ما نسيت ، ولكنه الانقيادُ لأمر الله .

وتنسى يا إسماعيل ، أنه يطلب رقبتَك ، ويسألك روحك !

كلا والله ما نسيت ، ولكنه الانصياعُ لأمر الله .

نفسان طاهرتان تتناجَيان ، ولا رقيبَ إلا الله ، وما سمعهما إنس ولا جان ، ولا حنا عليهما حانٍ ، ولا أبصرهما عدوٌّ شمْتَان .

وقال له إسماعيل :

﴿ قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾

(الصافات الآية ١٠٢)

يا أبت ، اذبحْنى ، ولكنْ بعيدًا عن أمى ، حتى لا تفجعها فىَّ ، فهى وَحْدَها التى حَنَتْ علىَّ ، واغتَرَبَتْ مِن أجْلى ، وَدَفَعتْ حياتها ثمنًا لحياتى !

يا أبت اذبحْنى ، ولكنْ لا تفجعْ فى أصدقائى الصبيان العرب .

ويا أبت اذبحْنى ، ولكن لا تفجعْ نفسَكَ فىَّ فأنا حبيبُكَ ووحيدُك !

وياليتنى يا أبى ، أستطيع أن أذبح نفسى بنفسى ، على مذبح مَرْضاتِك حتى لا أُتْعبك ، ولا أشقَّ عليك !

ويا أبت ،أنا ابنُك ، وطَوْعُ أمْرِك ، وسآخذ معى الحبلَ والسكّين ، وسأسْبقُك إلى وادى مِنَى ، وفى قاعه اذبحْنى ، بين جباله العالية ، وسكونه الرهيب .

وَعَدَ إسماعيل أباه وصدَقَ وعْدَه ، ولو أنه سيدفع رقبتَه وحياته ثمنًا لوعده .

﴿ وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِسْمَٰعِيلَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صَادِقَ ٱلْوَعْدِ ﴾

(مريم الآية ٥٤)

وإسماعيل فى طريقه إلى مِنَى ، لَحِقَ به الشيطان إبليس ، فوسوس له بقوله : يا إسماعيل ، لا تستمعْ لهذا الشيخ الذى شاخ وخَرِف ! يا إسماعيل شبابُك وحياتُك ، وأمُّك التى ستعمى من بكائِها عليك !

ولكن العقيدة الراسخة لا تُزَعْزِعها الوساوس ، فأخذ جَمرات ورَجَمَهُ بها ، وصدَّه عن طريقه ، وسار .

ثم اعترضه إبليس مرة ثانية ، ووسوس له يقول : يا إسماعيل إن أباك لم يَرَ فى منامه

رؤيا ، وإنما هو رجلٌ عجوز حرَّضَتْه عليك زوجته سارة ، ضَرَّةُ أُمك التى طردتكما من الشام ، وهذه محاولةٌ أُخرى للقضاءَ عليك ففتحْ عينيْك ، فلست الآن فى طاعة أبيك المسكين ، وإنما أنتَ ضحيةُ الغَيْرة ، غَيْرة الضَّرة . وقد نبَّهْتُك ، فخُذْ حِذْرَك !

ولكن العقيدة السليمة ، لاتَهُدُّها الدسيسة ؛ والقلبَ العامرَ لا تُخَرِّبه شائعاتُ السوءِ .

فجمع جمراتٍ ، ورجم إبليس ، وصدَّه وأخزاه ! .

وجاءَ إبراهيم ، فقدَّم إليه إسماعيل الحبلَ والسكين ، وهمَّ أبوه أن يربطه ويُكتِّفه ، ولكنَّ إسماعيل قال : يا أبت .أنا مُستسلم لك ، راضٍ بقضاءَ الله وأحب أن تذبحنى من غير وَثاق ، حتى يكون لى ثوابُ الرضا بمقدور الله .

فأضجعه إبراهيم على جنبه ، واستجمع قوَّته وشجاعته ، لذبْح ولده .

وأمسك السكين بيدٍ مرتعشة ، وأعصابٍ محطمة مُنْهارة ، ونفسٍ مُنكسرة ، وقلبٍ مَكْلوم حزين .

وحزَّ بالسكين رقبة ولده ، ولكنَّ السكين لا تَحُزُّ ولا تقطع ، فهى كالعين التى سُلِبَ بصرُها فأصبحتْ لا ترى ، وهى كالنارِ التى أوقدوها لتحرق إبراهيم ، ولكنها كانت بردًا وسلامًا عليه .

وكذلك كانت سِكينُ إبراهيم ، لا تَحُزُّ ولا تقطع .

والشيخ يَزُمُّ شفتيه ، ويكتم نَفَسه ، ويستنجد بما بقى فى نفسه من شجاعة ، وبما بقى فى عضلاته من فتوة ، ويحزّ بالسكين ، فلا تحزّ ولا تقطع .

وتأخذه الرحمة فيبكى ، وتدمع عيناه ، فتسقط الدموع على دموع إسماعيل الباكى رحمة بأبيه .

دموع على دموع ، تغلى وتفُور بحرارة الإيمان ، فيصعد منها عمودٌ من نور ، وقَبَسٌ من طاعة الله ، والاستسلام لقضاءِ الله ، والتضحية فى حب الله بالحياة ، وهى أغلى ما وهب الله !

وضجَّت ملائكة الله فى سماه ، وتعلقَتْ بعرش الله ، تدعو وتستجير بالله .

ارحمْ يارب هذا الشيخ الكبير ، وافْدِ ياربِّ هذا الغلامَ الصغير !

واستجاب الله ، ورحم إبراهيم وإسماعيل ، وأنزل جبريل بالفِداءَ ، بكبشٍ من كباش الجنة ، وقال :

يا إبراهيم ، رُبَّك يُقرئك السلام ، ويُنعم عليك وعلى إسماعيل بالفداء والإكرام .

﴿ وَنَادَيْنَاهُ أَن يَا إِبْرَاهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ ﴿١٠٦﴾ وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ ﴿١٠٧﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ ﴿١٠٨﴾ سَلَامٌ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ ﴿١٠٩﴾ كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١١٠﴾ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ﴾

(الصافات الآيات ١٠٤-١١١)

* * *

وهلل إبراهيم ،وكبَّر إسماعيل ، وفرحت لفَرَحِهما السموات والأرض والجبال ، وكان يومُهما يومَ عيدِ الأضحى ،الذى رسمه إبراهيم لمَّا ضحَّى بالفداء .

* * *

لك الله يا إسماعيل ، إنك سيِّد الأبناءِ ، وعميد الأبرار ! أين منك أجدادك أولاد آدم ، الذين اقتتلوا من أجل عروس ! وما اقتتلتَ ولا غضبْتَ من أجل نفسك !

وأين منك عمُّك ، ابنُ نوح ، الذى خرج عن طاعة أبيه ، وقد كنتَ فدائيًّا مثاليًّا فى طاعة أبيك .

* * *

وعاد إبراهيم إلى الشام ، بعد هذا الابتلاءِ ، راضيًا ، خاشعًا مؤمنًا ، وقد رسخ إيمانُه ، وعمق يقينه ، وسبح فى ملكوت الله ، لا يرى ولا يسمع ، ولا يُبصر ، ولا يفكر إلا فى الله .

﴿ وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴾

(الزخرف الآية ٣٢)

و ﴿ إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ ﴾

(الأعراف الآية ٥٦)

ورحمةُ ربنا أوْسَع ، وفسيحُ رضاه أرْحَب ، مما نظن ونأمُل .

فلقد كان إبراهيم غارقًا فى حياته من الله ، إذ حَبَاه وفَدَى له إسماعيل .

وما لبث أن حَطَّ رحَاله عند ساره ، حتى شاركته فى الثناءِ على الله .

وسبَّحتِ الله فى علاه ، وخرَّتْ ساجدةً حامدةً على ما قضاه .

و

﴿ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ﴾

(إبراهيم الآية ٧)

فقد دخل عليها ، وعلى إبراهيم ، ملائكةُ الله يزفُّون إليهما البُشرى . بولدٍ سيولد لهما ، اسمُه إسحق ، ومن وراءِ إسحق يعقوب .

فلما سمعت البُشرى ، اختلط عليها أمرُها ، وتوزَّعت عواطفها ؛ بين شيخوختِها التى لا أمل فيها أن تلد ؛ وبين بشارة من الله أنْ سيَهَبُ لها الولد ! فضحكت بملءِ شِدْقَيْها مرة ، وضَرَبتْ وجهَهَا بكفيها مرة ، وغرقت فى العَجَب مرة ، وخافتْ قولَ الناس فيها وفى زوجها الشيخ مرة .

وفزعت لِهَوْل موقفها

﴿ قَالَتْ يَا وَيْلَتَىٰ أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِي شَيْخًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ ﴾

(هود الآية ٧٢)

قالوا : أتعجَبين من أمر الله ! رحمةُ اللهِ وبركاتُه عليكم أهلَ البيت .

* * *

وبعد فترةٍ من الزمن ، طالتْ أو قَصُرَت ، كبر إسماعيل وَشَدَا ، ودرج مع أطفالِ العرب الذين عاشوا حوله ، وهم يلهون ويلعبون ، ويركبون الخيل ، ويتبارَوْن فى الفروسية ، ويرمون بالسهام والقِسىِّ ، ويجرون وراءَ الغزلان . وتزوج إسماعيل ، وبنى بيتًا وكوَّن أسرة .

وجاشت فى نفس أبيه الشيخ عاطفة الأبوة ، أن يرحل ليزور ولده إسماعيل الغريب . ووصل ، وطرق الباب ،فردتْ عليه زوجةُ ولده ردًّا غير كريم ، ولم تعْزِمْ عليه ، ولم تُحسن التحدث إليه ، بل شكَتْ الحال ، وقلة المال ، وشظفَ العيش ، وضيقَ النفس بالحياة .

والأب العجوز النازح من الشام إلى الحجاز ، يتحسس أخبار ابنه فيسمع من هذه الزوجة ، كلامًا عن ابنه لا يسر ، ويرى من لِقائها ووجهها ما يضر ، فلم ينزل عن ناقته ، ولم ينشرحْ صدرُه ، وقال : إن جاءَ إسماعيل ، فسلمى عليه ،وقولى له : إن رجلاً من الشام ، جاءَ يزورك فلم يجدْك ، ولم يَسعدْ بك ، وساءَه أنك غيرُ سعيد ، وهو يدعو لك ويوصِّيك أن تُغيِّر عتبةَ بابك .

فشيَّعته بجَفْوة ، وأغلقتْ الباب فى وجهه .

وعاد إسماعيل ، فأخفتْ عليه ، ولكنه شم رائحة أبيه .

فتحدثتْ حديث الغضبانة ، عن رجل عجوز ، يسأل ويوصِّى ؟ ومالَه ! ومالَنا ، يبحث فى أحوالنا ، وينصحُنا أن نغيرَ عتبة بابنا !!

فقال إسماعيل : ياتاعسة الحظ ، وياخائبة الأمل ، سعادة الإنسان فى حفظ اللسان ، إنه أبى ، جاءَ يسأل عنى ، ويطمئن علىَّ .

وتغيير العتبة ، تطليق المرأة ، وتسريحُ الزوجة ، اذهبى فأنت طالق .

* * *

وعاد أبوه بعد فترة ، لانشغاله عَليه ، وطرَق الباب ، فَلقىَ الترحيب والتأهيل بالضَّيف الكريم ، والأب الرحيم ، وأن إسماعيل سيعود عما قريب ، وانزلْ ياسيدى ، فأنا هنا خادمته وزوجته . وهو سعيدٌ ، وفى خير مزيد ،وعيشٍ رغيد . ولما لم ينزلْ ، استحلفَتْه بالله لينتظرَنَّ .

ثم دخلت ، وما أسرع ما خَرجَتْ ، بماءٍ ليغسل به وجهه ورأسه ، ثم دخلتْ ، وما أسرع ما خرجتْ وعلى رأسها زادٌ من لبنٍ وتمر ، وسقته ماءً باردًا سائغًا للشاربين .

فقال لها : باركَ الله عليك وعلى إسماعيل ، سلمى لى عليه ، وقولى له إن أباكَ ، يطمئن عليك ، ويدعو لك ، ويوصِّيك أن تُثبت عتبةَ دارِكَ .

وجاءَ إسماعيل فهلَّلت وكبَّرتْ لزيارة الشيخ الكريم ، وأنها تمنَّت علَيه أن يستريح ، ولكنَّه لم ينزلْ .

فقال : ياسعيدة . هذا أبى ، حلَّت بركاتُه ،واستجيبت دَعَوَاتُه ، دعا لك بالتثبيت ، لِقاءَ ما أكرمت ، وأحسنتِ اللِّقاءَ .

﴿ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ ۖ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَ ۚ وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ﴾

(إبراهيم الآية ٢٧)

* * *

﴿ رَّبَّنَآ إِنِّىٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِى بِوَادٍ غَيْرِ ذِى زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ ۙ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجْعَلْ أَفْـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِىٓ إِلَيْهِمْ وَٱرْزُقْهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴾

(إبراهيم الآية ٣٧)

* * *

أين كان بيت الله المحرَّم ، يوم دعا إبراهيم ربه ؟
أكان يعرف إبراهيم مكانه ؟ أم ألهمه الله أنَّ هذا مكانُه ؟
أو أنَّ هذه الرَّبوة ستكون مكانَه ؟

* * *

أم كما قالوا : إن الملائكة بَنَوْا مسجدًا هنا ، سَجَدُوا لله فيه ، وطوَّفوا حوله ، تسبيحًا لله ، وثناءً عليه ؟

* * *

أم كما قالوا . إن آدم ، يوم هبط إلى الأرض ، بنى مسجدَه هنا ، ثم قدُم واندثر ، وغمره طوفانُ نوح ، وبقيتْ أطلاله ؟

الذى كان ، أن إبراهيم أسْكَنَ إسماعيل هنا ، ليُصَلِّى لله ، ولتُصلِّى ذريتُه فى هذه البقعة الطيِّبة من الأرض ، وسأل إبراهيمُ ربَّه ، أن يجعل قلوب الناس تهفُوُ وتهوى إلى الوادى القاحل المُجْدب ، الذى لا زرعَ فيه ولا ضرع ، وسأل الله ، أن يَمُن عليهم بالثَّمر ، والثمرُ من الشجر ، والنخلُ وفير ، وخيره كثير .

* * *

وكان كل دعاءِ إبراهيم ورجاؤه ، أن يُوفِّق هؤلاءِ الذين سيعيشون فى هذا الوادى إلى شكره على ما أنعم ، والثناءِ والحمد على ما وهب . من تيسير أسباب الحياة والرزق ، فى صُقْع من الأرض ، لا تُرجَى فيه حياة ولا رزق .

* * *

ولعل من استجابة الله لدعاء إبراهيم ،أن فَرَضَ الحجَّ على الناس ، ليحملوا إليهم من مالٍ ورزقٍ وزاد ، ومنَّ عليهم بالشجر والثمر ، ومنَّ عليهم بثمر الأرض من مناجم الذهب ، ومنابع البترول ، وأفاءَ عليهم بفضله العميم ، ولعلهم على ذلك يحمدون ويشكرون !

* * *

والذى كان ، أن الله سبحانه ، جعل من دون استجابة دعاءَ إبراهيم اختبارات وامتحاناتٍ وابتلاءَات .

﴿ وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ﴾

(البقرة الآية ١٢٤)

فابتلى إبراهيم فى هجْرِه ضَنَاه إسماعيل .

وابتلى هاجرَ فى الصبرِ على الحبْس ، فى وادٍ غير ذى زرع . وأعطشها ، حتى كادتْ تهلك ، وأوْحَشَها ، حتى كادت تَنْبُو بالمكان . وأهدى إليها عين زمزم ، حتى يرى إنْ كانت ستضنُّ على العرب العطاش ، وجمَّع عليها العرب ، وهى شابَّةٌ ، ليبلُوَها فى رعايةِ نفسها ، وصيانةِ عِرْضِها ، ومَاءِ وجْهها وحَضَانةِ ابنها .

واختبر إبراهيم ، بِلَهَبِ الشَّوْق والحنين إلى ولده ، وهو فى قُطْرٍ غير قُطره ، فجعله نَهْبًا مُوَزَّعًا بين سارة فى الشام ، وبين هاجر وإسماعيل فى الحجاز .

وابتلاه بذبح ولده ، ثم فداه ، ليستُرَ غَوْرَ صبره على قضاه . وبشره بإسحق ، ومِنْ وراءِ إسحق يعقوب ، ليرى مقدار شكره .

وابتلاه بسفَرَاتِه وَرَحَلاته من الشام إلى الحجاز ، ليزورَ إسماعيل فتصْدُمَه زوجةُ إسماعيل الناكرة ، يزورُه مرة أخرى فتلقاه زوجته الشاكرة .

وابتلاه بتوزيع جُهوده بين هذا وذاك ، وهو لايزال مُكلَّفًا بدِينه ، ونَشْر رسالته ، والدعوة إلى الله .

قوَّاك الله يا إبراهيم ، فى اختبارٍ وابتلاءٍ توضع فى البُوتَقَةِ لتَنْصَهِر ، فتخرج منها ، خالصًا من الدَّرن ، صافى المعدن ، لطيفَ الحِسّ والإيمان .

حتى إذا أتمَّ الله صُنْعَك على عين الله ، وحَسْبمَا أرادك الله ، كلفك أن ترحل رحلةً خطيرة ، لمُهِمَّة خطيرة .

* * *

أن ترحل يا إبراهيم هذه المرة من الشام إلى الحجاز ، لتبنى أنت وولدُك إسماعيل ، بيتًا لله ، أول بيوتِ الله ليعبُدَ الناس فيه الله :

﴿ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ ﴿٩٦﴾ فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ ۖ وَمَن دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا ﴾

(آل عمران الآيتان ٩٦/٩٧)

* * *

﴿ وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ ﴾

(الحج الآية ٢٦)

* * *

﴿ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِيمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ إِنَّكَ أَنتَ
ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾ رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا
مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴾

(البقرة الآيتان ١٢٨/١٢٧)

* * *

﴿ وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ وَلَقَدِ ٱصْطَفَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا
وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٣٠﴾ إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾

(البقرة الآيتان ١٣١/١٣٠)

* * *

أليس فى دعاءِ إبراهيم ،بشارة ، بدعوة نبِّينا محمدٍ ، عليه وعلى آله الصلاة والسلام ؟ حين دعا فقال :

﴿ رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ
وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾

(البقرة الآية ١٢٩)

* * *

وإبراهيم يبنى وإسماعيل يُناول ، فى الله ، ولله ، حتى بُنيت الكعبة ، فكانت أولَ بيتٍ للعبادة ، وكلُّ مسجدٍ للعبادة ، ولكنْ للكعبة فضلُ الأوْلويَّة . كالابن البِكْر بين إخْوته وأخواته له الهيبةُ والقيمةُ والاعتبار .

* * *